تطور الحياة الثقافية والفكرية في عهد عبد المؤمن بن علي

أ. عبد الناصر بوعلي
جامعة تلمسان

مقدمة:

عاصرت الدولة الموحدية فترة عويصة كان العالم الإسلامي يمر بها حيث ساد الانحلال والاضمحلال في أوضاعه السياسية ونظمه الاجتماعية وأحواله الاقتصادية وشؤونه الفكرية.
وقد تجسد هذا كله في التجزئة السياسية، وتوطيد نظام الإقطاع العسكري وتكريس الإقليمية، وامتداد البداوة على حساب الحضر، وضعف الاقتصاد زراعة وصناعة وتجارة، ومن ثم أصبح الفكر منكفأ على الماضي مجترا لذكراه، فليس بمستغرب والحالة هذه أن تمهد هذه الظروف لأحداث تحاول الخروج من هذه الأوضاع المزرية، وشاء القدر أن يلتقي عبد المؤمن بن علي بابن تومرت على غير موعد وتبدأ قصة لقاءه بهذا العالم بخروجه من قرية "تاجرا" بعد وفاة والده بصحبة عم له يسمى يعلو بقصد السفر إلى المشرق من ميناء بجاية فسمع منه وأعجب بفصاحته وعلمه الفياض وبداهته وحكمته ويروي ابن خلدون هذا اللقاء فيقول:"ولما دخل ابن تومرت بجاية وبها يومئذ العزيز بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة فأغلظ له ولأتباعه في النكير (لارتكابهم المنكر) وتعرض يوما لتغير بعض المنكرات في الطريق فوقعت بسببها هيعة أنكرها السلطان والخاصة وائتمروا به فخرج منها ولحق بملالة... وهناك لقبه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي" [1]، فكان هذا اللقاء النواة الأولى في الدعوة الجديدة التي تأسست على إثرها الدولة الموحدية على إثر بيعة عبد المؤمن بن علي سنة 527هـ.

أجهد عبد المؤمن بن علي نفسه في بناء الدولة الموحدية القوية والمترامية الأطراف وذلك بدهائه السياسي وحنكتنه في التسيير وحكمته البالغة فأرسى قواعد الدولة وتمكن من بناء جيش قوي ونظام حكم سوي يقدم له فيه الكل الولاء ونظم الخراج وساس الناس بحكمة ورشاد فاطمأنت له القلوب، وعم البلاد الهدوء والسلام فانعكس إيجابا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

مظاهر التطور في الحياة الثقافية:

أ – اللغة والفقه:

شهد عصر الموحدين حركة لغوية نشيطة، فابن تومرت كان من المهتمين باللغة العربية. وعليه سار خليفته عبد المؤمن الذي ربى ابنه يوسف تربية دينية ولغوية حتى صار من علماء اللغة ومن المتضلعين في علم النحو.

وليس أدل على عناية الموحدين بعلوم اللغة والنحو، من أن مشاهير النحاة بالمغرب والأندلس قد ظهروا في عصرهم. ففي الأندلس ظهر عمر الشلوبين مؤلف كتاب التوطئة في النحو ومحمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو والصرف وصاحب لامية الأفعال.

وكان زعيم نحاة المغرب في هذه الفترة أبو موسى عيسى بن عبدالعزيز الجازولي المراكشي مؤلف الجزولية.

ومن اللغويين المغاربة محمد بن احمد هشام اللخمي السبتي المتوفى سنة 570 صاحب كتاب الفصول والجمل في اللغة. (2)

ومن اشتهر في علم الصرف أبو ذر مصعب بن مسعود الخشني وكذلك الحسن بن احمد بن يحي بن عبدالله الأنصاري الذي برع في النحو والعروض وتوفي بمالقة سنة 585هـ .

ومن علماء الأندلس محمد بن جعفر بن احمد بن خلف الذي درس على أقطاب عصره فبرز في علم اللغة والبلاغة.

ب – الأدب:

ازدهرت الآداب في عصر الموحدين فخليفتهم كان في مقدمة هؤلاء الأدباء، وبالتالي طبع الدعوة والدولة بطابع العلم والادب من أول يوم قامت فيه.

فقامت على التدريس والخطابة لشرح الدعوة ونشرها بين القبائل فالمهدي مثلا جند طائفة مختارة من تلاميذه لبث ونشر مبادئه، وكان من بينهم عبد المؤمن بن علي ومحمد البشير، وأبوحفص عمر الهنتائي فكان هؤلاء يخطبون باللغة العربية (3).

وكان عبد المؤمن مؤسس الدولة شاعرا وأديبا وناقدا وقلده أبناؤه وشعبه فانتشر العلم والأدب فتظاهر العلماء في ميادين الشعر والبلاغة ونالوا كل عناية وتشجيع من طرف الخلفاء، ونافس أدباء المغرب زملاءهم أدباء الأندلس لأول مرة في التاريخ.

النثـر:

كانت الخطابة هي أول أداة استعملها الموحدون كما سبق القول في نشر الدعوة الموحدية، فمن خطب ابن تومرت تلك التي ألقاها في الموحدين فقاموا بعد سماعها بمبايعته، وكان على رأس المبايعين عبد المؤمن بن علي، ومما قاله ابن تومرت في إحدى خطبه منددا بعلماء المرابطين الذين عارضوا دعوته:

"واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والماكرين وكل من نسب منهم إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولون فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله" (4). والظاهر أن الكتابة النثرية كانت في عصرها الذهبي في عهد عبد المؤمن بن علي فقد جمع المستشرق الفرنسي ليفي برو فنصال رسائل الموحدين التي بلغت سبعا وثلاثين رسالة من بينها ثلاثة وعشرين كتبت في عهد عبد المؤمن، ومن أشهر كتابه نذكر أبو جعفر بن عطية وأبوالحسن بن عياش وأبو القاسم القالمي.

ومن رسالة أبي جعفر بن عطية على لسان عبد المؤمن إلى الموحدين بالاندلس نقتبس ما يأتي:"وقد اتصل بنا وفقكم الله تعالى أن من لا يتقي الله ويخشاه ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاه ولا يؤمن بيوم الحساب في ما أذاعه من المنكر وأفشاه، ويتسلطون بأهوائهم على الأموال والابشار..."[5].

وتحتوي هذه الرسالة على نقد كثير موجه للولاة والقائمين بشؤون الحكم بالأندلس وظهرت أيضا رسائل التوقيعات ومنها توقيع عبد المؤمن على قصيدة الكاتب أبي جعفر بن عطية الذي أرسل وهو في السجن قصيدة يستعطف بها الخليفة لعله يحضى بعفوه ومطلعها :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد *** بان العزاء لفرط البث والحزن

فلم يستجب له عبد المؤمن ووقع على القصيدة بالآية الكريمة "الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين"[6].

كما ظهر أيضا من فنون النثر المناظرات وكان أول مناظر في الموحدين زعيمهم المهد بن تومرت الذي ناظر علماء المرابطين وتغلب عليهم وتغلب عليهم في مجلس الأميعلي بن يوسف.

وأخيرا سادت فنون النثر التأليفي فظهرت مؤلفات عامة في التاريخ والفلسفة والعلوم الدينية والأدبية.

الشعـــر:

نقدم بعض النماذج التي تقدم لنا صورة تقريبية عن حال الشعر في هذه الفترة في تاريخ الدولة الموحدية فمن شعر ابن تومرت مناجيا نفسه قوله :

أخذت بأعضادهم إذا نأوا *** وتسمع وعظا ولا تسمع

فكم انت تنهي ولا تنهـي *** وخلفك القوم إذا ودعـوا [7]

ومن شعر الخليفة عبد المؤمن قوله :

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبة *** وخلها سيرة تبقى على الحقب

فما تنال بغير السيف منزلة *** ولا ترد صدور الجيل بالكتب[8]

وهذان البيتان يذكران بقول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب *** في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف *** في متونهن جلاء الشك والريب [9]

ويذكر ابن صاحب الصلاة قصيدة لعبد المؤمن ذيل بها رسالته إلى ولده يوسف مبشرا إياه بفتح المهدية وتحريرها من النصارى يقول فيها:

ولما قضينا بالمشارق أمرنا *** وتم مراد الله في كل مطلب

وطهر هذا الصقع من كل كافر *** وعاد بها الإسلام بعد تغيب

وكسرت الصلبان في كل بيعة *** ونادى منادي الحق في كل مرقب
أشرنا بأعناق المطي إليكم *** فطار بها شأو السرور بمغرب
فأبشر أبا حفص بنصر مؤزر *** كفيل بما تبغيه في كل مذهب
فطوبى لأهل الغرب ماذا يرونه *** من النصر والفتح المبين المقرب [10]

وحمل لواء الشعر في عهد عبد المؤمن شاعران مغربيان شهيران هما أبو عبدالله بن حبوس وأبو العباس الجراوي فالشاعر ابو حبوس هو أول شاعر لزم عبد المؤمن ونال حضوته ورضاه حتى أطلق عليه لقب شاعر الخلافة المهدوية ومما قاله في مدح عبد المؤمن:

ألا أيها البحر جاورك البحر *** وخيم في أرجائك النفع والنصر
وحاش على أمواجك الحلم والحجا *** وفاض على اعطافك النهي والامر
وسال عليك البرخيل كماتها *** إذا حاولت غزوا فقد وجب النصر

ومما قاله في الأسفار:

رد الطرف حتى توافي النميرة *** فرب عسيرا اتاح اليسيرا
وأرسل قلوصك طولا وشمالا *** وطورا جنوبا وطورا دبورا

ومن شعر الجراوي في مدح عبد المؤمن قوله:

أعليت دين الواحد القهار *** بالمشرفية والقنا الخطار
ورأى به الإسلام قرة عينه *** وغدت بك الغراء دار قرار
وملكت من طرف الهداية لاحقا *** طوبى لمن يمشي على الآثار
وجرت معالمكم إلى الأمد الذي *** بعدت مسافة على الأسفار

إلى أن يقول:

أخليفة المهدي دمت مؤيدا *** بالله منتقما من الكفار
ترمي شياطين الاعادي في الوغى *** برجوم خيل من سماء غبار
روعت كل مروع وحفظت *** تل مضيع وحميت كل ذمار

ونسجل ظاهرة الشعر النسائي في هذا العهد فقد قالت الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني *** أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا اكذب الله إنني *** رشفت بها ريقا ألذ من الخمر

ومن شعرها تهنئ أبا سعيد بن عبد المؤمن:

يا ذا العلا وبن الخليفة *** الغمام المرتضي
يهنيك عيد قد جرى *** فيه بما تهوى القضى

ومن الشواعر الأندلسيات أسماء العامرية الغشبيلية التي كتبت إلى عبد المؤمن في رسالة قائلة:

عرفن النصر والفتح المبين *** لسيدنا أمير المؤمنيـــن

إذا كان الحديث عن المعالي *** ورأطيت حديثكم فيه شجون

ومن شعر الزهد نذكر قول الفقيه المتكلم أبي العباس أحمد بن عبدالرحمن بن صقر:

إلهي لك الملك العظيم حقيقة *** وما للورى مما منعت نقير

تجافي بنوا الدنيا مكاني فسرني *** وما قدر مخلوق جداه حقير

وقالوا فقير وهو عندي جلالة *** نعم صدقوا إني إليك فقيـر

ومن أشعار الصوفية ما قاله أبو سفيان المخرومي:

كل عطاء فإلـى علـة *** لا شك يقضي ولوجه السقـم

الا الذي منك بلا علـــة *** يا خالق العرش ومجري القلم

كل الورى لابس ثوب الدجى *** لولا سني منك يجلي الظلـم [11]

وقد ظهر في عصر الموحدين شيخ المتصوفين محيي الدين بن عربي الطائي الحاتمي.

مراجع البحث

1) العبر 6 / 467
2) أشباخ يوسف ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، القاهرة 1958، ص63.
3) البيدق ، أبوبكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، باريس ، 1928، ص102.
4) صالح بن قربة، عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص83.
5) عزالدين عمر احمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، 1983، ص58.
6) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار السلمي، الدار البيضاء، 1965، ص 113.
7) عنان محمد عبدالله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، 1964، ص68.
8) عبدالله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص24
9) أبو تمام، الديوان ، ص 84.
10) بورويبة رشيد، عبد المؤمن بن علي، الجزائر، 1976، ص32.
11) عبدالله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، (مرجع سابق)، ص 102 – 104.